هيمنة القرآن وخلوده

الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

هيمنة القرآن وخلوده

الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام (*)

لعل في بقاء واستمرار الطائفة المنصورة قائمة على الحق، مصدر استمرارية التطبيق للقرآن، ذلك أن وجود النماذج القرآنية التطبيقية الدالة على الخلود، والقدرة على إنتاج هذه النماذج في كل زمان ومكان، يعد حفظاً توثيقياً علمياً وعملياً، بعدما حفظ حفظاً توثيقياً كتابياً ولفظياً صوتياً.

- مقدمة:

الحمد لله أنزل القرآن، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، وتكفل بحفظه، وصانه من التغيير والتبديل الذي اعترى ما سبقه من الكتب، وسلّمه من التناقض والاختلاف الوارد على عمل البشر.

(*) رئيس مجمع الفقه الإسلامي (السودان).

وأفضل الصلاة وأتم السلام على من بعثه الله تعالى بالقرآن، هداية لبني الإنسان، فكان (خلقه القرآن).

وبعد:

فهذا بحث عن هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من الكتب، وتصديقه لها، وائتمانه ورقابته عليها، يشهد بالصحة لأصولها من حيث أنها من عند الله الديّان، ويبين ما وقع فيها من التبديل وما طرأ عليها من التحريف على مر الأزمان...

وهو الكتاب المعجز للعالمين أن يأتوا بمثله، المهيمن على النفوس المؤمنة به، المؤمِّن للإنسانية من الخوف، المتضمن من الشرائع ما سما بخصائصه على سائر الشرائع والقوانين، فكان بذلك مهيمناً عليها، وكانت النبوة التي جاءت به خاتمة النبوات. فكانت هذه الخاتمية مقتضية للخلود وللديمومة والصلاحية لكل زمان ومكان، والديمومة والعالمية من لوازم الخاتمية..

ذلك أن خاتمية الرسالة وختام النبوات يقتضي ديمومة القيم القرآنية بما فيها من توجيهات إلهية، فكانت الديمومة للقرآن لتدوم هذه القيم.

وكانت أمة الإسلام بما تمتلك من هذه الخصائص القرآنية، أهلاً لأن تكون الشاهدة على ما سواها من الأمم. فالقرآن يضم بين دفتي المصحف من المعايير والحكم ما يصلح حكماً وموجهاً لجميع الإنسانية.. وقد تكفل الله تعالى بحفظ هذه القيم وهذه المعايير من خلال حفظ الكتاب الذي يشتمل عليها، ومن خلال عزائم البشر الذين يعيشونها ويتمثلونها.. فحَفِظَه الصحابة، رضوان الله عنهم، وتواتر نقله في الأمصار، واعتنى المسلمون به

على مر الأعصار، وهي عناية تليق بهذا الكتاب العظيم، مشافهةً وكتابةً ورسماً وتدويناً وحفظاً في الصدور قبل السطور كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت:49)؛ وإقامة لشعائره، وتطبيقاً لشرائعه في ميادين الحياة العامة والخاصة، مما جعل لهذا لقرآن أثره البالغ في تاريخ البشرية عموماً والمسلمين خصوصاً..

كما تحقق لهذا القرآن أن يهيمن بكماله وجلاله وجماله على كل كتاب، وأن يظهر على الدين كله، وأن تسود حضارة الإسلام ذات البعد الروحي والمادي، على سائر الحضارات، قديمها وحديثها. وأمة القرآن جديرة بأن ترفع ذكرها الذي به تسترد هيبتها، وأن تعود إلى أصالتها، فتوثق صلتها بكتابها المهيمن العالمي الخالد، لتكون بالتزامها به، مهيمنة عالمياً، خالدة قيمياً، وأن تستعيد التاريخ الإنساني المشرق كما كان مجد أسلافها حملة هذا الكتاب من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان في جميع الأجيال حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ومع ما جرى تفصيله بحسب المقام في هذا البحث عن الهيمنة القرآنية، فما يزال في هذا المجال سعة، وعسى أن يتيسر لنا لاحقاً بفضل الله، أن نستوعب الحديث أو نقاربه بالإضافة والمراجعة والتعديل، ثم نفصل بَعْدُ في الخاتمية والخلود، والعالمية والصلاحية الأبدية.

والله يتولانا وهو يهدى سواء السبيل.

هيمنة القرآن على الكتب

- دلالة المصطلح:

تفيدنا الدراسة المعجمية لمدلول كلمة (هيمن) : أنها آمن غيره من الخوف، قال ابن منظور: وأصله (أأْمن) فهو مؤأمن، بهمزتين قلبت الثانية ياء كراهة اجتماعهما، فصار مؤيمن وهو مفيعل من الأمانة، ثم صيرت الأولى هاء كما قالوا: هراق وأراق.

وقال بعضهم: مهيمن بمعنى مؤمن أي الأمانة، والهاء بدل من الهمزة كما قالوا هرقت وأرقت.

وفي معنى المهيمن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:48)، والكتاب في الموضع الأول الذي أنزله الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ عدة معانٍ:

1- المؤمَّن، الذي آمن غيره من الخوف.

2- المؤتمن؛ لأن القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب.

3- الرقيب على كل شيء، يقال هيمن يهيمن هيمنةً، إذا كان رقيباً على الشيء، والقرآن بهذا المعنى رقيبٌ على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والدقة في أصلها.. والمراد حفظ أصول هذه الكتب المنزلة، والرقابة على ما وقع فيها من تبديلٍ أو تحريف.

4- الأمين، الذي لا يضيع لأحدٍ عنده حق، كما هو أمين على كل كتاب قبله.

5- القائم على الكتب، القيِّم والقائم بأمور الخلق، ومنه القيام على الشيء، وقولهم عن أحدهم: إنه أعلم بالمهيمنات أي القضايا ذات الهيمنة، أي ذات الأهمية الحاكمة؛ فالقيام على الشيء يجعل الفعل لها وهو لأربابها القوامين بالأمور، والمهيمن القائم على خلقه برزقه.

وأنشدوا:

ألا إنَّ خير الناس بعد نبيه مهيمنه في العرف والنكر

6- الشاهد على صدق أصول الكتب وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين بها، وهو الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء.

7- الحافظ، حيث حفظ القرآن أصول الكتب في كونه الرسالة الإسلامية الخاتمة، التي اكتمل بها الدين وتمت نعمة التوحيد، من حيث ما تضمنته من دعوة التوحيد وأصول الدين.

8- المصدِّق، بمعنى أنه صدَّق أنها أنزلت من عند الله في أصولها.

9- الحاكم على ما قبله من الكتب.

ومما يناسب ذكره في هذا المقام، أن لفظ المهيمن ورد في القرآن كاسم من أسماء الله في ختام سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ (الحشر:23)، بمعني القائم على تدبير أمر خلقه بأعمالهم وآجالهم وأرزاقهم.

وفى بيان تأويل هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:48)، يقول الطبري: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا أحمد مصدقاً للكتب قبله وشهيداً عليها أنها حق من عند الله، أميناً عليها حافظاً لها.. وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب. يقال رقب

الرجل الشيء وحفظه وشهده، قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن عليه وهو عليه مهيمن[1] بقوله ومهيمناً أي شاهداً حفيظاً مصدقاً، وأميناً رقيباً عليه.

وعلى هذا فهيمنة القرآن على الكتب تعني أنه جاء بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب، وحافظاً لها، وشاهداً وأميناً عليها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143).

وتتجلى هيمنة القرآن، على الكتب السابقة بعد تأملنا في النصوص القرآنية على النحو التالي:

أ- مفهوم هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

فالقرآن مهيمن على الكتب السابقة بأن صدق نزولها من عند الله، وحفظ الأصول التي جاءت بها دعوة الأنبياء الذين نزلت عليهم وهي دعوة التوحيد، وشهد على من آمن بها حين نزولها بأنهم ممن استجابوا لأمر الله، وعلى من كذب بأنهم ممن عصوه واستحقوا غضبه، وهو لا يزال قائماً بهذا الحفظ والتصديق والشهادة، أميناً قيِّماً أخبر عنها وعن أهلها، رقيباً على أن يُدعَّىَ عليها غير ما قال عنها، مؤتمن في ذلك كله.

وهذا معنى تصديقه لما سبقه من الكتب وهيمنته عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:48).. يقول حسان بن ثابت، رضي الله عنه، في مدح رسول الله ﷺ وبيان هيمنة القرآن على الكتاب:

إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب

(1) تفسير الطبري، 172/6؛ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 180/6.

والقرآن الكريم مع كونه مهيمناً على الكتب السابقة، فهو يصدِّقها ويكملها، ويكشف مواطن التحريف، والتأويل فيها، ويفّصل ما جاء بها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (يونس:37). وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:97).

ولذلك يعود التشابه بينه وبين ما سبقه من الكتاب في الأصول الصحاح، ومقاصد التنزيل الحكيم كالدعوة إلى الخير والهداية للناس، مع تميزه وتفرده واحتفاظه بسماته الخاصة.. فالتوراة والإنجيل أنزلهما رب العزة هدى للناس وكذلك أنزل القرآن، مع تصديقه لهما، وتكميله وتصحيحه لما فيهما كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران:1- 4).

كما أن هيمنة القرآن على الكتب تعني - فيما تعني- أن القرآن يملك خاصية المراجعة والرقابة لما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل، أو الإخفاء والإلغاء. فالقرآن بهذا يصوِّب التاريخ ويقوِّم الحاضر ويوِّجه المستقبل.

وهيمنته عليها بهذا المعنى تتضمن:

1- الاسترجاع:

وهو استرجاعه ذكر بعض الأحداث الكبرى التي وردت في الكتب السابقة، حيث أعاد روايتها، محققة مُحكمة و بما فيها من عبرة وموعظة.

ويدخل في الاسترجاع القصص القرآني الذي اشتمل على جملة من قصص الأنبياء والمرسلين، وأممهم، إيناساً للنبي ﷺ وتطييباً لخاطره وتثبيتاً لقلبه، وبياناً وهدى لأمته، واعتباراً بما لحق بالدعاة من ابتلاءات ووقاية مما حاق بالمكذبين من سوء العواقب: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:120).

هذا، كما اشتمل القصص القرآني على بيان شواهد طيبة على نتائج الالتزام بتطبيق الأحكام الشرعية في الأمم السابقة، مما يدعم صلاحية هذه الأحكام، وهو المتفق عليه في شتى الشرائع السماوية من هذه الأحكام، ومن ذلك ما قصه القرآن من قصص بني إسرائيل، مبيناً عقوبة القصاص في التوراة وتصديق الإنجيل لها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:44- 46).

فقد جاء القرآن مبيناً أن شريعة القصاص توفر الأمن للحياة ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(البقرة:179)، وهي شريعة باقية،

وهو بذلك يوثق مثل هذه الأحكام من حيث هي معتمدة مستوعبة في الإنجيل، إذ جاء الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ويزيدها وثاقة أن القرآن مصدق لما جاء في التوراة والإنجيل، بيد أن له هيمنة وسلطاناً عليهما يبقِي ما يبقِي، وينسخ ما ينسخ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها فهو منسوخ، إذ له الهيمنة الكاملة(1).

2- الاستيعاب:

إن ما أخبر به القرآن عن الأمم الماضية والرسل كان أوسع دلالة وأكثر استيعاباً وتوثيقاً، فضلاً عن تنزيهه لله تعالى ورسله الكرام عن تصورات المغضوب عليهم والضالين، ومن ذلك أن القرآن ذكر إبراهيم ودعوته إلى عبادة الله وتسفيهه عبادة الأوثان منذ عمر الفتوة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء:60)، هذا بينما لا يرد له ذكر في الكتب السابقة كالتوراة إلا بعد بلوغه سن الخامسة والسبعين. على أن ما جاء في القرآن الكريم مع وثاقته أهم من تفصيلات كثيرة وردت في الكتب السابقة عبرة وعظة من ورائها.. ذلك بأن القرآن الكريم يأخذ من حياة الأنبياء والرسل ما يمثل القيم العليا التي يدعو لها.

ثم إن ما ورد في القرآن من بعض شرع من قبلنا لا يخرج عن كونه مما أُمرنا به بالأصالة بحكم تصديق القرآن لتلك الكتب، من قبيل التأكيد لمشروعيتها الموروثة، كما في قوله تعالى في مشروعية الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:183).

(1) انظر محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن (القاهرة: دار الفكر العربي، 19977م) ص196 وما بعدها.

ومثل هذا الحديث عن شرع من قبلنا داخل في الاستيعاب، حيث استوعب القرآن ما في الكتب السابقة من الحق على منهاجه وطريقته ومقدرته الفائقة على استيعاب الخير، والعمل على أن يتجاوز بالبشرية ليبني لها مستقبلها، فرسل الله كلهم أخوة، وجاء كل واحد ليكمل رسالة سابقة حتى بعث الله النبي الخاتم برسالته الشاملة، المتضمنة كل الشرائع والحكم في صورتها النهائية، مهيمنة على ما سبق، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِى شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ (الشورى:13- 14).

3- التجاوز:

أما التجاوز فيتناول الحديث عن النسخ وتجاوز الخصوصيات الزمانية والمكانية والقومية والعرقية.. ومع ما جاء في القرآن من أصول سبقت في الكتب الأولى، فقد تجاوز كثيراً منها بعد أن تغير الحال، وتحقق النضج البشرى وتهيأ لاستقبال الرسالة الخاتمة، وجاء بما هو خير منها، وأكمل وأتم وأيسر.

فأحل الطيبات وحرم الخبائث ووضع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة تخفيفاً وتيسيراً، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلۡأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:157).

وفوق هذا كله رفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان والإكراه، وجعل التكليف في ما يطاق ويستطاع، وازداد عفواً ومغفرةً ورحمةً، مخبراً عن ذلك كله في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:286).

ويظل القرآن كله يؤكد بعضه بعضاً في هيمنته على الكتب السابقة والحكم عليها، فلا صدق لما خالف القرآن من أخبار الكتب السابقة، بل إن من وجوه هيمنة القرآن كونه ناسخاً لتلك الكتب، وشاهداً للحكم عليها. ولعل الإمام الرازي كان يستحضر هذه المعاني كلها وهو يعقب في تفسيره الكبير على الآية الخاتمة لسورة المائدة حيث يقول: «في هذه الخاتمة الشريفة أسرار كثيرة... أن السورة اشتملت على أنواع كثيرة من العلوم، فمنها بيان الشرائع والأحكام والتكاليف، ومنها المناظرة مع اليهود في إنكارهم شريعة محمد ﷺ ومنها المناظرة مع النصارى في قولهم بالتثليث، فختم السورة بهذه النقطة الوافية بإثبات كل هذه المطالب، فإنه تعالى قال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾ (المائدة:120).

ومعناه أن كل ما سوى الحق سبحانه فإنه ممكن لذاته موجود بإيجاده تعالى... وإذا كان الأمر كذلك كان مالكاً لجميع الممكنات

والكائنات، موجداً لجميع الأرواح والأجساد، وإذا ثبت هذا لزم منه ثبوت كل المطالب المذكورة في هذه السورة، وأما حسن التكليف كيف شاء وأراد فذاك ثابت؛ لأنه سبحانه لما كان مالكاً للكل كان له أن يتصرف في الكل بالأمر والنهى والثواب والعقاب كيف شاء وأراد فصح القول بالتكليف على أي وجه أراده الحق سبحانه وتعالى. وأما الرد على اليهود فلأنه سبحانه لما كان مالك الملك فله بحكم المالكية أن ينسخ شرع موسى ويضع شرع محمد، عليهما الصلاة والسلام، وأما الرد على النصارى فلأن عيسى ومريم داخلان فيما سوى الله؛ لأنه بيَّن أن الموجد إما أن يكون هو الله أو غيره، وعيسى ومريم لاشك أنهما داخلان في هذا القسم، فإذا دللنا أن كل ما سوى الله ممكن لذاته موجود بإيجاد الله كائن بتكوين الله كان عيسى ومريم، عليهما السلام، كذلك. ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فثبت كونهما عبدين مخلوقين فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية التي جعلها الله خاتمة لهذه السورة، برهان قاطع في صحة جميع العلوم التي اشتملت السورة عليها، والله أعلم بأسرار كلامه».

وحيث كان القرآن مهيمناً على الكتب السماوية فإن هيمنته على ما سواها من باب أولى، وذلك في كل ما يتصل بالشعائر والشرائع والأحكام والآداب والعلوم، وحسب القرآن أن الله تعالى أنزله وهو حافظه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:82)، وإذا تقرر هيمنة القرآن على ما سبق من الكتب فإن ذلك يقتضي بالضرورة هيمنته على كل مكتوب ومقروء من كتب

ومؤلفات استقل بها أفراد أو جماعات أو كانت نتاج حضارات ودول على اختلاف الأعصار والأمصار، ومعياريته لها.

ب- تحريف الكتب السابقة:

حيث إن الكتب السماوية الموجودة بأيدي الناس مليئة بعمل البشر وأهوائهم، مما لا يناسب مقام ذي الجلال والإكرام ومقام رسله عنده، الأمر الذي لم يكن خافياً على الدراسات المقارنة لغير المسلمين من أهل تلك الملل، التي تثبتت ذلك، مما يؤكد هيمنة القرآن على هذه الكتب.

وقد جاء القرآن الكريم يقص على بني إسرائيل الذين عاصروا نزول القرآن الكريم، ويبين لهم ما اختلفوا فيه اختلافاً شديداً، حتى صار يلعن بعضهم بعضاً، فنزل القرآن يبين لهم ويهديهم إلى الحق الذي لو أخذوا به لما اختلفوا، ومن ذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل.

والتحريف هنا لفظي ومعنوي وهو مقتضى الإطلاق ومن أدلته:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:78)؛ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة:79).

وكفى بشهادة القرآن دليلاً على ما أحدثه أهل الكتاب في كتبهم من تحريف، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:75).

وهذا موضع آخر ينص فيه القرآن على تحريف اليهود خاصة للكلم عن مواضعه في التوراة: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (النساء:46)، والقرآن يشهد على فريق من أهل الكتاب أنهم في سبيل تحريف الكلم يلوون ألسنتهم، أي يقلبونها بالتحريف والزيادة، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:78).

ويقول تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة:14- 15).

وهذا خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى معاً، أن يتبعوا الحق الذي جاء به القرآن الخاتم المهيمن، والذي يوافق ما لم يصبه التحريف من كتبهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (المائدة:68)؛ لأن الذي يؤمن بما جاء به القرآن، يعتبر مؤمناً باليهودية الحقة، ومؤمناً بالنصرانية الصحيحة، وقد اعتبر الكثير من العلماء أن القرآن الكريم أقدم وثيقة علمية وصلت بطريق التواتر، لذلك فهي من الناحية الوثائقية البحتة تعتبر مصدراً للأديان السابقة.

والقرآن ينعى على أهل الكتاب، ويحذر من الانشغال بظاهر الحياة الدنيا عن ذكر الله، كما فعل اليهود والنصارى، الذين قعدوا عن القيام بواجبهم حتى تركوا كتابهم، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (الحديد :16).

قال ابن كثير: «فذم الله أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله» (1).

وأما ما أسقطوا من كتبهم من الأحكام ومن القصص، فإن القرآن يشير إلى ذلك أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل:76- 79).

ج- ختم الرسالة:

قضى الله جل وعلا أن تكون رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات السماوية، واللبنة الأخيرة في البناء النبوي، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً كما انتهت إلى الرسول ﷺ كمالات الأنبياء، لذلك لابد أن تكون مهيمنة عليها، فهي المكملة والمتممة لها والباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكان الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والقرآن هو آخر الكتب السماوية والمهيمن على ما سبق منها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المقدمة، ج1.

وفى صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا وَيَقُولُونَ: لَوْلا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ قال رسول الله ﷺ: فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ جِئْتُ فَخَتَمْتُ الأَنْبِيَاءَ**»(1).

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ**»(2).

ونقل القرطبي عن ابن عطية: في معنى خاتِم وخَاتم أن: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة، خلفاً وسلفاً، متلقاة على العموم التام، مقتضية نصاً أنه لا نبي بعده ﷺ(3).

د- لوازم ختم النبوة:

لذلك كان من لوازم الخاتمية وتوقف النبوات، التصويب والاستمرار للقيم، وحفظها في الكتاب والسنة صحيحة من كل تحريف أو تبديل، ليصبح التكليف صحيحاً عقلاً وشرعاً، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

وختم النبوة يعني: أن القرآن هو آخر رسالة إلى الناس، فلا كتاب بعد القرآن. ولو علم الله أن الناس يحتاجون إلى رسالة أخرى من بعد ذلك لما كان القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة، فإن رحمته بالبشر لا تتركهم بغير دليل وهداية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107).

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم.

(3) الجامع لأحكام القرآن.

ونتيجة لختم النبوة، يلزم أن تكون الرسالة خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان، أي صالحة لكل زمان ومكان، وأن تكون لجميع البشر، تحقيقاً للعالمية، وأن تكون ميسرة للقراءة والعمل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر:17). وأحكامها قائمة على التيسير لا التعسير: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:185)؛ حيث لا حرج ولا مشقة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:87)، والتكليف على الوسع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:286). كما جاءت هذه الرسالة لترفع عنا الإصر والأغلال التي كانت على من سبقنا: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:157).

وقد ظل نداء المسلمين على الدوام، دعاء يتلى آناء الليل وأطراف النهار: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة:286).. وليس ثمة حاجة لشيء من الرسالات السابقة تحقيقاً لمعنى الهيمنة؛ لأن الحفظ والخلود من لوازم الخاتمية.

وقد أحسن من قال: «والرسالة الخاتمة جاءت تعرض الإسلام في صورته النهائية الأخيرة، ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي الموجهة لمسار الكون، وهي للناس جميعاً، ولتهيمن على كل ما كان قبلها، وتكون هي المرجع النهائي، ولتقم منهج الله لحياة البشرية وفق تعاليم القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:9)، وستظل هذه الرسالة ترفد الكون كله بهذه الهداية لتدور حياة البشرية حول محورها، استمداداً للتصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي وآداب السلوك الفردي والجماعي حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنها الحق الباقي:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (النساء:105).. يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع وفرض القوانين. ويتمثل الحق في محتوياته وفي كل ما يعرض له من شؤون العقيدة والشريعة، وفي كل ما يقص من خبر وما يحمله من توجيه»[1].

هـ- الرسول والرسالة في الكتب السابقة:

لقد قص القرآن الكريم بشارة الكتب السابقة بالنبي الخاتم ﷺ وبرسالته الخاتمة، وما تضمنته هذه الرسالة من بيان هيمنة القرآن عليها: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ (الصف:6).. ومع ما أصاب كتب السابقين من تحريف وتبديل، إلا أن الإشارات الباقية فيها تؤكد البشارة بخاتم النبيين بصفاته ﷺ.

بل إن أحبار اليهود والنصارى يعرفون مما بين أيديهم، صدق رسول الله الخاتم ﷺ، ويجدون العلامات الدالة عليه في كتبهم: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ (الفتح:29).. وقد أفلح منهم من عرف الحق واتبع الهدى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾

(1) في ظلال القرآن، 2/901-902.

(الأعراف:156)، ثم خسر من لم يؤمن، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:20).

ولذلك، فالقرآن هو الحق والحكم ومصدر التلقي المهيمن الذي يحتكم ويلجأ إليه؛ سواء بما عرض من أحكام أو تاريخ البشرية أو القصص؛ لأنه الذي يتضمن المعايير والأصول الصحيحة التي تبين الحق وتصوب ما اختلف فيه.

فلا مجال بعد هذا لاعتماد كتب أهل الكتاب ولا الأخذ منها، وسيقضي الله تعالى بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، فيظهر ما حرفوه في الدنيا ويجازي في الآخرة كل واحد، المحق والمبطل.

لذلك ومهما تعددت النصوص والمصادر، تبقى الهيمنة للقرآن بما تحقق له من الحفظ، فهو مصدر المعرفة الذي يرجع إليه والذي نحاكم إليه شرائعنا، وخواطرنا واجتهاداتنا، ومؤلفاتنا، وكتبنا، ومن ثم فلا بد لكل اختلاف أن يرد إلى هذا الكتاب المعيار ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي الناشئ، أو بين أصحاب الديانات السماوية أو حتى بين المسلمين أنفسهم.

و- هيمنته على مصادر المعرفة وانسجامه مع حقائق العلم:

مصادر المعرفة في الرؤية القرآنية تتجاوز ما يعرفه الماديون من ظاهر الحياة الدنيا؛ فمصادر المعرفة التي لا يعرف العالم المادي غيرها وعليها قامت حضارته وكما يعبر عنها تعريف اليونسكو: «كل معلوم بالحس والتجربة» أسقطت من معرفتها الوحي وعالم الغيب، وعليه فإن مصادر المعرفة عند الماديين لا تتجاوز الحس والتجربة، أما في المفهوم القرآني

فلا إنكار للحس ولا التجربة ولا الخبرة ولا المشاهدة بل إن القرآن ارتكز إليها ونص على ذلك كله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:78)؛ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق:6- 7)؛ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:17- 20)؛ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام:11)؛ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:53).

وفوق ذلك كله، فإن الوحي بما يمتلك من صفة الهيمنة يعتبر مصدر المصادر للمعارف والعلوم، وسبحان الله منزل الوحي وحافظه وعاصمه، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام:115)، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:193- 195).

وتبارك الله رب العالمين خلق الخلائق كلها يعلمها علم الخلاق العليم: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:14). وحسبنا أن نقول: إنه على الرغم من تقدم العلوم والمعارف مع ذلك لم يستطع العلم أن يسجل تعارضاً أو إصابة واحدة للنص القرآني، بل جاء العلم تأكيداً لما جاء به القرآن، وانسجامه معه دليل أسبقية القرآن للعقل البشرى المحدود، وأنه لا تناقض بين العقل والوحي ولا ثنائية بينهما، وحقاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء:82)، مما جعل القرآن مصدراً لاستمرار المعرفة وتصويب النظريات، بحيث يكون القرآن هو المرجع لتأصيل العلوم وتحديد وجهتها وبيان هدفها.

وقد خلص «موريس بوكاى» بعد دراسة مقارنة للتوراة والإنجيل والقرآن، مع ما توصل إليه العلم من حقائق، إلى تناقض في التوراة والإنجيل مع هذه الحقائق، وانسجام القرآن معها مما دفعه إلى إثبات شهادته تلك في كتابه: (القرآن والعلم).

ز- هيمنته على الحضارات والديانات:

لما كان القرآن هو النص السماوي الوحيد الذي وصل بطريقة علمية صحيحة، وكان من خصائصه الخلود والخاتمية، لذلك اكتسب صفة الهيمنة على النصوص الدينية السابقة، وكل الإنتاج الثقافي الذي نشأ في ظلها أو معارضاً لها، كما هيمن على الحضارات جميعاً وعلى ما سبق من الديانات، وعلى تقاليد العرب الجاهلية، وعلى التراث الكتابي والعربي والفارسي والروماني واليوناني، وعلى ما يأتي من مذاهب وأفكار معاصرة مادية وإلحادية، شرقية كانت أم غربية، فهي وإن خدع بريقها بعض الأبصار فذلك إلى حين؛ لأن التأثير النفسي والمحاكمة العقلية للقرآن وهيمنته على القيم الروحية والنفسية والفكرية في المسلمين يحول دون استقرارها ورسوخها في النفوس وتأثيرها عليها لما يتضمنه من انسجام مع الفطرة الإنسانية ومخاطبته لها: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ (الروم:30). ويشهد لهذا واقع دخول العديد من أبناء الغرب في دين الله

بعد أن لامست كلمات القرآن قلوبهم فأثمرت إيماناً بالله: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد:17).

وهذا من أعظم معاني الهيمنة التي يسعى المصلحون المجتهدون لتحقيقها في حياتنا المعاصرة، وسيظل القرآن بذلك كتاب الحاضر والمستقبل، ولا يأتيه الباطل من بين يديه مما سبقه من الكتب والفلسفات، ولا من خلفه مما يمكن أن يكون المعارف والعلوم والفلسفات، مثلما كان منذ نزوله مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فسيبقى بإطلاقيته هادياً يهدي الناس كلهم؛ لأن الله تعالى أنزله هكذا: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (البقرة:185)، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:1) ويمحو عن الناس بهدايته آثار الضلال وأنماط السلوك المادي المنحرف، فمهما استفدنا من حكمة (الغير) واهتدينا بالشواهد فالقرآن يعود ويبقى حكماً: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام:115)، صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في العقائد والشرائع والشعائر ويوجه الحياة الإنسانية عموماً: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:9). فنظرته هي الأقوم، وهدايته هي الأكمل والأحسن في كل شيء، وهو بهذه القوامة مهيمن عليها جميعاً.

وهيمنته هيمنة معنوية (قيمية وفكرية) في المقام الأول، ومن شواهدها صلاة النبي ﷺ ركعتين في المسجد الأقصى كما ورد في قصة الإسراء والمعراج، حيث جمع الله له المرسلين في بيت المقدس وأمره ربه أن يسألهم فلم يشك ولم يسأل كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن

﴿قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ (الزخرف:45)[1]، ودلالة ذلك أن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين جاء بكلمة الله الأخيرة.

ومن ذلك أن المعجزات السابقة التي مضت في الأمم السالفة كانت معجزات مادية قاهرة لتلكم الأمم، ولكن المعجزة الخاتمة كانت معنوية مجردة عن حدود الزمان والمكان، جاءت لتمتد ولتهيمن على الأفكار بالطوع والاختيار، وظهر بذلك حقاً أن القرآن العظيم هو كلمة الله الأخيرة في الكلام المقروء وقراءة الكون بالنظر والاعتبار والتدبر كما دعا القرآن. وقد جاء النبي ﷺ مذكراً بالقرآن من غير أن تكون له سيطرة على أحد: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:22).

وأصل (مسيطر) في اللغة من السطر؛ لأن الكتب سطر، و(المسيطر) المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعد أحواله ويكتب علمه وأصله[2].

وهكذا فإن الهيمنة لا تعني سلب الإرادة ولا التسلط ولا الإكراه قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾ (البقرة:256). وليس لأحد من نبي أو أتباعه أن يكرهوا أحداً على الدخول في الدين: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:99)، وإنما الهيمنة في تأمين الحرية الفكرية والاعتقادية؛ لأنها السبيل الوحيد للوصول إلى الحق، وهو ما جاء به القرآن.

فقد عمل الإسلام على تأمين الناس في حريتهم الفكرية والاعتقادية، كما ضمن تأمين الناس في أنفسهم ممتناً عليهم بنعمه ليعبدوه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟

(1) انظر الطبري، 78/25؛ والقرطبي، 94/16–95.

(2) انظر لسان العرب، مادة سطر،364/4؛ الزبيدي، تاج العروس، مادة سطر،26/12؛ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، مادة سطر،330/3.

رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ (قريش:3- 4).

والأصل في دعوة الإسلام، أنها دعوة طوع واختيار، وسماحة ويسر: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:29)، ولم تقم مشروعية الجهاد إلا حين بادر الخصوم بالمحاربة: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج:39- 40).

وكانت مشروعية الجهاد أيضاً لتأمين العبادة ودورها، وحماية غير المسلمين إلى جانب المسلمين، كما تحدثت آيات مشروعية الجهاد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ ﴾ (الحج:40).

واستمرارية الدعوة والمجاهدة بالقرآن، ومضيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، خير دليل على هيمنة الكتاب الذي أمر به، قال ﷺ: «**لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**»(1).

ولعل في بقاء هذه الطائفة المنصورة قائمة على الحق، مصدر استمرارية التطبيق للقرآن، ذلك أن وجود النماذج القرآنية التطبيقية الدالة على الخلود، والقدرة على إنتاج هذه النماذج في كل زمان ومكان، يعد حفظاً توثيقياً كلياً وعلمياً، بعدما حفظ حفظاً توثيقياً كتابياً ولفظياً صوتياً.

ح- هيمنته على مصادر التشريع:

(1) أخرجه مسلم.

وكما أن القرآن أنزل وهو مهيمنٌ على النص الديني الذي سبقه، وكل الإنتاج الثقافي الناشئ في إطاره، أو المناقض له، فإنه هو الأصل المهيمن على مصادر التشريع لاستنباط الأحكام، وما سواه يأخذ مشروعيته وصوابه منه.. والسنة النبوية لها الهيمنة بطبيعة بيانها وتطبيقها العملي للقرآن، وقد كان النبي ﷺ يتخلق بأخلاق القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4)، وقد أخبرت عنه السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنه «كان خلقه القرآن».. وإجماع الأمة أو مجتهديها، لا يخرج عن الارتكاز والاستناد إلى فقه القرآن، أو هيمنة القرآن عليه.. أما القياس فمعلوم أنه لا يستند إلى أصل منصوص عليه في الكتاب والسنة(1).

وقد أبعد النجعة من ظن أن المدونات الفقهية من تراثنا، تغني عن النظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، في كل عصر، بإعمال مجتهديه آراءهم واجتهاداتهم، مع الاستفادة من تراثنا، دون اعتقاد العصمة له. ومع مكانة السنة النبوية في التشريع الإسلامي بجانب القرآن، حيث أمرنا القرآن في مواضع كثيرة منه بمتابعة الهدي النبوي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر:7)، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(النساء:80)، فليس من الفقه أن يستدل بعض أهل الحديث بالسنة وحدها مع وجود النص الإمام من القرآن كاستدلال بعضهم على وجوب استقبال القبلة في الصلاة، بإيراده في المسألة حديثاً والغفلة عن إيراد قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ

(1) وأقدم نص ذكر فيه القياس مصدراً من مصادر التشريع ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأبي موسى الأشعري عندما كان والياً على البصرة، فمن بنود تلك الرسالة قول عمر: «الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك، مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك...»؛ نعمان بن محمد بن العراق، تحقيق محمد حميد الله، ط 1393هـ، ص 128.

فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة:144).

ط- هيمنة المؤمنين به على سائر الأمم:

الأمة المسلمة هي أمة الوسط، التي ناط الله بها الشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:143) والشهادة هنا تعني الهيمنة بكل معانيها، لذلك فمن وجوه الهيمنة للقرآن أن يؤدي المؤمنون وظيفة إمامة الإنسانية، وهدايتها، وتصويب مسيرتها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (التوبة:71). مع قيام المؤمنين بواجب إعداد العدة وامتلاك القوة المأمور بإعدادها في القرآن: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:60)، والجهاد في الله حق جهاده: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾ (الحج:78).

عالمية رسالة القرآن

العالمية إحدى مقتضيات مفهوم الخاتمية، والهيمنة من لوازمها؛ فمجيء الرسالة خاتمة للرسالات يقتضي الهيمنة على غيرها من الرسالات، وهذا يلزم منه عدم حصرها في أمة دون أخرى. والقرآن ينص في خطابه على ذلك، موجهًا نداءه للناس جميعاً وللعالمين.

وتتجلى عالمية القرآن أكثر ما تتجلى في المظاهر التالية:

أ- عموم الرسالة:

ولا شك في عالمية الرسالة، فقد جاء الإعلان بذلك مع بدء الوحي منذ الفترة المكية، وفي كثير من السور كما في سورة الأنعام المكية، يقول تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام:19)، وفي سورة الأعراف المكية أيضاً نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158)، علاوة عن صيغة الخطاب المتكرر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وفي تأويل هذه الآية يقول ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل مرسلاً إلى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض ولكنها إليكم جميعكم».

وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: «ذكر أن موسى بشر به وأن عيسى بشر به ثم أمره أن يقول: إني رسول الله إليكم جميعاً»[1].

روى جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيْنَمَا أَدْرَكَ الرَّجُلَ مِنْ أُمَّتِي الصَّلاةُ يُصَلِّي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَلَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً**»[2].

ونقرأ في صدر سورة الفرقان وهى مكية النزول: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1). وفى بيان اشتمال هذه الآية على عموم الرسالة الخاتمة يقول الطبري: «يقول تبارك الذي نزل الفصل بين الحق والباطل وسورة بعد سورة، على عبده محمد ليكون محمد لجميع الإنس والجن، الذين بعثه الله إليهم داعية إليه نذيراً.. يعني ينذرهم عقابه، ويخوفهم عذابه، إن لم يوحدوه ويخلصوا له العبادة».

فرسالته ﷺ ليست لفئة من الناس دون غيرها وإنما هي للناس جميعاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:28).

وفى تأويل هذه الآية يقول الطبري: «وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين قومك خاصة ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين، العرب منهم والعجم والأحمر والأسود»[3].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 302/7.

(2) أخرجه النسائي.

(3) تفسر الطبري، م10، 66/22.

ويقول القرطبي[1] في بيان قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾، وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة، ثم ينقل عن الزجاج: وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ، وأن الكافة يعني الجامع، وقيل معناه: كافة للناس تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام.

فالنبي، عليه الصلاة والسلام، أرسل بالقرآن رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)، وقد فهم الصحابة، رضوان الله عليهم، هذا المعنى، فكانوا رسل دعوة وحملة هداية للإنسانية كلها، فجسدوا ذلك في حياتهم ودعوتهم وفتوحهم، فهذا أحدهم، وهو ربعي ابن عامر، رضي الله عنه، حين قال لرستم ملك الفرس: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ وما أرسلناك يا محمد إلا رحمةً لمن أرسلناك إليه من خلقي. ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية أجميع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بهذا، مؤمنهم وكافرهم، أم أريد بها أهل الإيمان خاصة؟».

يقول: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن ابن عباس أن الله أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به والعمل بما جاء من الله

---

(1) تفسيرالقرطبى، 300/14.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: دار الكتب العلمية) 40/7.

الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء، الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبل[1].

ب- التدرج في إقامة نظام الإسلام العالمي:

ولقد تدرج الإسلام بعد إعلانه المبكر بعالمية دعوته وعمومها، في إقامة نظامه العالمي حقاً ضمن مراحل متعددة، فصل المقال فيها وفق تسلسلها التاريخي والتشريعي ابن قيم الجوزية حيث يقول[2]: «أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر:1- 2).. فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ (العلق:1)، وأرسله بـ: ﴿أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.. ثم الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده.

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آى القرآن، 83/17.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحت عنوان: فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعثه إلى حين لقي الله عز وجل، 158/3-161.

ولما نزلت سورة براءة، نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب، حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام. وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم. فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم.. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهدٌ ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق، أربعة أشهر.. وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية..

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة إلى ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

أما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم وبالحجة، وأُمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأّخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم».

فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين، وأوردها صاحب الظلال[1]، ملخصاً لها، ثم عقب عليها معدداً سمات المنهج الحركي الإسلامي، وقد ذكر أن السمة الرابعة منها هي الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى... وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام هو الأصل العالمي، الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته.. فكل فرد في العالم ينبغي أن يحدد موقفه من الإسلام، فإما أن يسلم، أو يسالم، أو يحارب.

وللإسلام من هؤلاء مواقف محددة وواضحة، فصلتها سورة براءة، ولو لم يكن الإسلام عالمياً لما بقي يؤكد على العالمية منذ بدء الدعوة حتى اكتمل نزول القرآن، ولما حدد مواقفه من هؤلاء، وكان هذا في السنة التاسعة للهجرة أي قبل انقطاع الوحي بعام، على أن هذا التدرج في إقامة نظام الإسلام لا ينفي إعلان عالمية الدعوة منذ الفترة المكية، كما تشير إلى ذلك آية مطلع سورة الفرقان المكية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ج- عموم رحمته وعدالته في الحكم:

إنّ إلحاق الرحمة بالناس، هي الغاية التي من أجلها جاءت الشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى من يتولى أمر الناس أن يحكم فيهم شرع

(1) انظر في ظلال القرآن، 1433/3.

الله، وأن يعدل بينهم، دون نظر لاختلاف الملل أو النحل، أو الأجناس أو البلدان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (النساء:58).

يقول الطبري في تأويل هذه الآية: «هو خطاب من الله إلى ولاة أمور المسلمين، بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره، في فيئهم وحقوقهم، وما أتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في العطية، والقسمة بينهم في السوية»[1].

وفي هذا من الدلالة على عالمية القرآن ما فيه، بل لقد حذر القرآن من أية دوافع قد تحول دون تحقيق العدالة مع أي من البشر: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (المائدة:8).

د- الشهادة على الأمم:

الأمة الإسلامية، مهتدية بما جاء به القرآن الكريم، جديرة بأن تكون شاهدة على الأمم جميعاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ (البقرة:143). فهي الأمة الوسط، التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن فيهم تصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم، فتقوم أمرها، وتقول هذا حق وهذا باطل؛ لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها.. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم.. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول ﷺ هو الذي يشهد عليها، فيقر لها موازينها وقيمها ويحكم على

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 92/5.

أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة، وبهذا تتحد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها به[1].

ومما تعنيه الشهادة، بيان الحق فيما اختلف فيه، وإدانة الباطل الذي دخل تلك الكتب، وما أصابها من تحريف وتغيير وتبديل، وكشف الزيف الذي افتراه الذين استحفظوا من بعد الرسل على الكتب السابقة. وإن الأمة المسلمة بما تمتلك وتجسد في حياتها من قيم الكتاب المحفوظ وما صح من الهدى النبوي، هي أمة معيارية، شاهدة على غيرها، منحها الله الريادة والقيادة، يقول تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الحج:78).

فالشهادة على الناس، والقيادة لهم وفق منهج الله في الكتاب والسنة، هي من أخص خصائص المعيارية. ذلك أن أمة الرسالة الخاتمة، يستحيل عليها عقلاً وواقعاً أن تتواطأ على الخطأ؛ لأنها تمتلك القيم المعيارية المعصومة، ويمثلها ويجسدها - باستمرار- ظهور الطائفة القائمة على الحق، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك، الأمر الذي يقتضي عصمة عموم الأمة، التي يشير إليها قول الرسول ﷺ: «**لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار**»[2].

وخدمة السيرة والسنة النبوية للقرآن، وتجسيدهما له في أرض الواقع واستمرار التمثل بهما حتى عصرنا، دلالة على معيارية القيم المعصومة في الأمة[3].

---

(1) في ظلال القرآن، 1/130-131.

(2) أخرجه الحاكم وصححه، 1/115.

(3) عمر عبيد حسنه، من مقدمته لكتاب الأمة رقم (37).

خلود القرآن

الخلود أحد مقتضيات الهيمنة، كالعالمية والخاتمية، إذ تقتضي الهيمنة حفظ هذا القرآن، ليصل للناس جميعاً، فيكون خالداً.. ومن مظاهر خلوده:

أ- حفظ الله له:

فقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن أبد الدهر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9).. والمعنى: إنا للقرآن حافظون من أن يزاد فيه ما ليس منه، أو ينتقص منه ما هو منه، من أحكامه وحدوده وفرائضه(1).

وهذا حديث قدسي، يؤكد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن، لا ينال منه شيء أبداً «**...وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**»(2).

ومعنى قوله «**لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ**»: أنه محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مرّ الأزمان.

وأما قوله: «**تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**»، فمعناه: أنه يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة؛ وقيل: تقرؤه في يسر وسهولة(3).

وهذا الحفظ أكد وثاقة النص القرآني، مكتوباً ومقروءاً، سليماً من التغيير والتبديل، منذ نزوله وحفظه بالاستظهار في الصدور، والتدوين في الصحف، وبقي المصحف كذلك لم يتغير فيه شيء غير تطور رسمه عبر العصور، وهو تطور محدود بحدود بيان الهيئة الداخلية من ضبط الحروف وإعجامها، حيث ظلت الهيئة الخارجية للحروف على حالها الأول غالباً مثل

---

(1) انظر: الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 6/14.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه .

(3) انظر صحيح مسلم بشرح النووي، حديث رقم 2865 (بيروت: طبعة مؤسسة مناهل العرفان، دمشق: مكتبة الغزالي) مج 6، 198/17.

كلمة (الصلوة) لم تتغير في رسم المصحف إلاّ في وضع ألف صغيرة فوقها يوضح نطقها هكذا (الصلوة).

ولم يكن الاعتماد على مجرد رسم المصاحف، بل صحبها شيوخ قراء معتمدون أقروا بما فيها، وأورثوا تلاميذهم حفظ الصدور، وقراءة المصحف، وفقه العمل، والحكمة، التي طبقها الرسول. فقد حفظ القرآن بظهر الغيب رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، من لدن عصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وظل العدد يتنامى ويزيد على توالي القرون ورغم كل الظروف، بما حقق تواتر نقله في الأجيال.

ويأتي دور الأجيال اللاحقة في فهم المعاني واستخراج الحكم واستخلاص الحلول والمعالجات لمشكلات الحياة المتجددة مع الإفادة الكاملة والتقدير لجهود السلف الصالح، التي تشكل المرجعية الشرعية لفهم الكتاب وتنزيله على الواقع.

وقد شهد المنصفون من الباحثين، حتى من غير المسلمين، بسلامة النص القرآني من التحريف والتبديل، ومن هؤلاء المستشرقون الألمان حيث جمعوا النسخ الخطية المتداولة للمصحف في شرق العالم الإسلامي وغربه، للوقوف على ما توهموا من اختلافات بين النسخ، وقارنوا بين هذه النسخ على العصور والبلدان المختلفة، فلم يجدوا اختلافاً أصلاً، مما يؤكد سلامة القرآن من التغيير والتحريف والتبديل، وهو رد من داخل الدراسات الغربية على كل ما أثير من شبهات لا أساس لها من الصحة.. ولا غرابة في ذلك، بعد ما شهد القرآن بأن الله تولى حفظه أبد الدهر.

وما أحسن ما أثر عن الجاحظ من كلمة بليغة عن سلامة القرآن من الزيادة أو النقصان، حيث يقول: «إن قوماً يتشككون في أحرف من القرآن ويبحثون عن زيادة أدرجت فيه بغير إذن النبي ﷺ وإجماع الصحابة في الوقت

الذي لو أن أحداً أراد أن يدخل حرفاً في شعر أبي الشمقمق لافتضح عند الرواة فضلاً عن كتاب الله عز وجل المنقول بالتواتر والأسانيد الصحيحة والمتلو في المحاريب أناء الليل وأطراف النهار؟».

كما تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب والسنة من أي تحريف أو تبديل، سواء في ذلك تحريف الكلم عن مواضعه، أو تحريفه بالتأويل والخروج بالمعنى عن ما وضع له اللفظ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9)، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:17- 19)، وهذا التكفل بالحفظ الإلهي والحراسة لبيانه وقيمه عن طريق النبوة، يعتبر من أبرز سمات الرسالة الخاتمة وأخص خصائصها.

ب- خلود القرآن ووجوه إعجازه:

ومن وجوه خلود القرآن وإعجازه للعالمين عجز الجنّ والإنس عن أن يأتوا بمثله منذ نزوله وعلى توالي العصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أوجز العز بن عبد السلام، رحمه الله، معاني الإعجاز فقال(1):

- **الإعجاز:**

1- هو الإيجاز والبلاغة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة:179).

2- أو البيان والفصاحة: للآية ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر:94)، ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف:80).

---

(1) نبذ من مقاصد القرآن العزيز، تحقيق أيمن عبد الرازق الشواط، ط.1 (طبع مطبعة الشام، توزيع مكتبة الغزالي، 1416هـ-1995م) ص 62-64. وهذا الكتاب فصل ختم به العز كتابه المعروف «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» وهو مطبوع، ط 1313 هـ، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

3- وهو رصفه الذي أخرجه عن عاداتهم في النظم والنثر، والخطب والشعر والرجز، والسجع المزدوج، مع أن ألفاظه مستعملة في كلامهم.

4- أو هو أن قارئه لا يمله.

5- أو ازدياد حلاوته مع كثرة تلاوته، بخلاف غيره، فإنه يُمَلُّ إذا أكثر منه.

6- أو هو لإخباره بما مضى، كقصة أهل الكهف، وذي القرنين، وموسى والخضر وجميع قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

7- أو هو إخباره عما يكون، كقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ (البقرة:24)، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ (البقرة:95).

8- واشتماله على العلوم التي لم تكن فيها آلتها، ولا تعرفها العرب، ولا يحيط بها أحد من الأمم(1).

ومجمل ما ذكره العلماء من وجوه إعجاز القرآن الكريم، يتلخص في أربعة أوجه، هي: الإعجاز البياني، والتشريعي، والعلمي، والإخبار عن غيوب المستقبل. ويتصدر الإعجاز البياني وجوه إعجاز القرآن.

والإعجاز البياني حقيق بهذا المقام من إمامة وجوه الإعجاز؛ لأنه وحي يتلى بلسان عربي مبين، أعجز العالمين أن يأتوا بمثله في بيانه ووجوه إعجازه كلها، ونقرأ هنا حديث رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(2).

---

(1) الإمام الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلميت، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (بيروت: طبعة دار البشائر الإسلامية، 1408هـ- 1987م) ص215.

(2) أخرجه مسلم.

والقرآن الكريم مثلما كان المعجزة الكبرى للإيمان، فسيبقى كذلك أبد الدهر، يدعو إلى الإيمان، ويبشر بالمستقبل، بإعجازه البياني والتشريعي والعلمي، والغيبي، ولعل أول ما يلفت النظر من وجوه إعجاز القرآن العظيم ذلك التناسق المحكم بين آي القرآن وسوره، مع تحقيق التكامل والوحدة الموضوعية، حتى أن القرآن كله في ترابطه واتحاد الموضوع، في حكم السورة الواحدة.

وقد أحسن ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب»، حيث ذكر في سياق كلامه عن (لا) النافية، أن عدم وجود الخبر في الآية نفسها أو السورة، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر:6)، حيث جاء الجواب في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (القلم:2)[1]. بل يذهب الإمام أبو بكر بن العربي في كتابه «سراج المريدين»، إلى أن «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى يكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم...»[2].وأحسن الزركشي في وصفه لترابط الآيات وتعلق بعضها ببعض، فقال: «بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة»[3].

ولقد اتفقت كلمة علماء العربية، من أئمة التفسير وعلوم القرآن وإعجازه البياني خاصة، على أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم يرجع إلى

---

(1) جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (دار الكتب العربية) 1/200-201.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/36؛ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1/6-7.

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1/39.

فصاحة ألفاظه، وبلاغة أساليبه، وخفته على اللسان، وحسن وقعه في السمع، وأخذه بمجامع القلوب[1].

وتتجدد أوجه إعجاز القرآن بيانياً، منذ نزوله وإعجازه العرب الذين عاصروا نزوله، فكانوا في أظهر مراحل لغتهم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بقرآن مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:33- 34).. وجاء هذا المعنى مع التحدي في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:88). ولا بعشر سور مثله مفتريات: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود:13- 14)، ولا بسورة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (يونس:38)، وهي آية مكية كسابقتها.

فجاءت هذه الآيات المدنية في سورة البقرة، تأكيداً للإعجاز والتحدي: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:23- 24).

ولا يزال الإعجاز والتحدي قائمين إلى يومنا هذا، وإلى الأبد، حيث تؤكد الدراسات اللغوية الحديثة أن من وجوه إعجاز القرآن وحدته البنائية،

(1) الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد السيد صق، ص51.

التي تساعد اللسانيات الحديثة على دراستها، كامتداد لما بحثه العلماء المتقدمون في إعجاز القرآن البياني.

ولقد تنزل السورة كالبقرة، نجوماً مفرقة على مدى طويل من الزمان، قد يستغرق سني حياة النبي ﷺ بعد الهجرة، لكنها لمن يتدبرها كأنها نزلت دفعةً واحدة، وفي ذلك يقول صاحب «كتاب النبأ العظيم»: «...إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذ البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة»(1).

إن نظم القرآن قد أخذ بألباب العرب البلغاء، وقد أدرك اللغويون القدامى عظمة لغة التنزيل، وأنها ليست كلغة العرب، أهل اللسن والفصاحة، وأن لها خصائص عالية اكتسبت بها الإعجاز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:41- 42) .. ولقد أقبلوا على التنزيل مستفيدين، معتبرين، مبينين أفانين شتى من وجوه القول، فكان ذلك مؤذناً أن القرآن قد أقام درس التربية على أنماطٍ جديدة، لم يهتد إليها العرب من قبل أن يتأدبوا بأدب القرآن.. لقد وجد الدارسون في لغة القرآن أنماطاً من وجوه القول وقفوا عليها، فقالوا فيها أقوالاً عدة، إذ هي وأمثالها كانت دافعاً لأهل العلم أن يضعوا أوائل الضوابط النحوية.

---

(1) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات حديثة في التفسير.

ثم إن لغة التنزيل العزيز قد نقلت العربية من كونها لغة أدب نتبينها في الشعر القديم، إلى لغة علم دقيق لها (مصطلحها الشريف)[1].

وأحل العلماء الراسخون منزلتها وعرفوا مكانتها، وكونها أساساً لفهم القرآن، يقول الشافعي: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وفي التسبيح والتشهد، وغير ذلك...»[2].

ويقول ابن تيمية، رحمه الله: «وإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[3].

وصاحب الموافقات في أصول الشريعة الإسلامية، يؤكد أنه لا سبيل لفهم القرآن والاستمداد منه إلا بمعرفة العربية، حيث يقول الإمام الشاطبي، رحمه الله: «إن هذه الشريعة المباركة عربية، فمن أراد فهمها فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى طلب فهمها في غير هذه الجهة».

أما العسقلاني، رحمه الله، فيذهب إلى وجوب معرفة اللغة العربية كفرضٍ من فروض الدين، الذي لا يأتي الفقه فيه إلا بهذه المعرفة، وينشد في هذا المقام:

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة
فليس يعرف دين إلا بحفظ اللغات

---

(1) انظر إبراهيم السامرائي، في شرف العربية، ص 35.
(2) الإمام الشافعي، الرسالة (ط. دار الفكر) الفقرة 167، ص 48.
(3) اقتضاء الصراط المستقيم، 69/1.

ولقد تحدث من بعد فأحسن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، رحمه الله تعالى، حيث بين أن القرآن يتناول إعجازه، إلى جانب نظمه وبيانه وتحقيقه لوحدة الأمة، جوانب ثلاثة :

تاريخه، فهو محفوظ بحفظ الله له أبد الدهر، لم يطرأ عليه ما أصاب الكتب السماوية الأخرى من تحريف وتبديل.

أما أثره، فكان أعظم كتاب أحدث هذا الأثر الشامل بما لم يسبق لغيره..

أما حقائقه، فهو الحق، وما أخبر به فكله حقائق: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فُصِّلت:41- 42).

ثم تناول بالدراسة سر الإعجاز في نظم القرآن، وذكر أن الكلام بالطبع يتركب من ثلاثة: حروف، هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، وأن سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها، بحيث خرجت من جملتها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به.

يقول الرافعي: «فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم».

ويتابع الرافعي حديثه عن الأثر الصوتي لنظم القرآن، فيقول عن الذي يستمع لصوت القرآن: «فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية،

في انسجامه، واطراد نسقه، واتزانه على أجزاء النفس، مقطعاً ونبرة، كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة».

ثم يقول: «وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه، مداً أو غنة، أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة، في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوهما، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو عجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه؛ لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان؛ وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يعد نقصاً منه في الأداء لأصوات الحروف ومخارجها، وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت، وتنوع طبقته، واستقامة وزنه على كل حرف.

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن، إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه، بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما، مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه، الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية»[1].

وسيظل القرآن أبد الدهر يقرأ في السر والعلن، في المحاريب والمحافل، آناء الليل وأطراف النهار، لا يمل.. وقد أحسن ابن قتيبة وصف إعجاز القرآن في هذا المقام حيث يقول: «وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلواً لا يمل على طول

(1) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،ط.6 (القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1375هـ-1956م) ص243-247.

التلاوة، ومسموعاً لا تمجه الآذان، وغضاً لا يخلق على كثرة الرد، وعجيباً لا تنقضي عجائبه، ومفيداً لا تنقضي فوائده»[1].

وعلى هذا السياق ذاته، يمضي الرافعي فيقول: «ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه، رأيته غضاً طرياً وجديداً مونقاً، وصادفت من نفسك نشاطاً مستأنفاً، وحساً موفوراً، وهذا أمر في أصله يستوفي العالم الذي يتذوق الحروف، ويستمر تركيبها، ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها، على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه»[2].

لم يقف الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن، عند حد بيان الإعجاز البياني للقرآن... بل نص على وجوه أخرى للإعجاز كثيرة، حيث يقول: «إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به»[3].

وفي تأثير القرآن على النفوس وسلطانه يقول سيد:

«إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً»[4].

---

(1) تأويل مشكل القرآن،ط.3 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1981م) ص3.

(2) المصدر نفسه، ص247.

(3) في ظلال القرآن، 16/15.

(4) في ظلال القرآن، 1786/3.

ثم يسترسل في بيان الأداء القرآني، فيقول:

«إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة، في حين يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير وأجمله وأحياه أيضاً، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة، والإيقاع، والظلال، والجو ومع جمال التعبير ودقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ موصفه، بحيث لا يجور الجمال على الدقة، ولا الدقة على الجمال.. ويبلغ من ذلك مستوى لا يدرك إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً»(1).

- الإعجاز التشريعي:

ويستمر إعجازه تشريعياً، بسبقه الشرائع والتشريعات السابقة المستمدة من أصول كتابية أو من وضع الحضارات والدول. وقد استفادت كل النظم الحضارية على مدار التاريخ، حتى الحضارة الغربية المعاصرة، من التشريعات الإسلامية ومدونات الفقه الإسلامي.

ولقد عد كثير من المتحدثين في إعجاز القرآن الكريم، علم الحلال والحرام أو ما يصطلح اليوم على تسميته بالإعجاز التشريعي، عدوه وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد علل صاحب كتاب «المعجزة الكبرى» لذلك، فقال: «وذلك لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع، وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم المودة والرحمة والعدالة،

(1) في ظلال القرآن، 1787.

لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية، وإذا وزنا ما جاء في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان، وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة وألف، من وقت إنشاء مدينة روما، إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل: إنهم ممتازون، منهم «سولون» الذي وضع قانون أثينا، ومنهم «ليكورغ» الذي وضع نظام أسبرطة.

فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن، الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى، من غير درس درسه، وكان في بلدٍ أمي ليس فيه معهد، ولا جامعة، ولا مكان للتدارس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني، لم يسبقه سابق، ولم يلحق به لاحق»[1].

وتثبت الاكتشافات العلمية أن القرآن لا يتناقض مع أي حقيقة علمية تم اكتشافها في أي عصر من العصور، بل لم يكتشف العلماء والباحثون بعض ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية قبل أربعة عشر قرناً، إلا في هذا العصر، بحيث لا تخالف حقائق القرآن ومقرراته ما توصل إليه البحث العلمي من حقائق. والتفسير العلمي بضوابطه الشرعية، يعد من أقوى الوسائل اليوم لبيان إعجاز القرآن لأهل عصرنا هذا.

وقد أشار صاحب كتاب «مدخل إلى القرآن الكريم»[2]، إلى حقائق علمية في القرآن الكريم، فقال: «ولكن القرآن في دعوته إلى الإيمان

---

(1) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص427-428 .

(2) محمد عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم، ص 176/175 وحواشيها.

والفضيلة، لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة، لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب وإنما لأنها تذكر بالخالق العظيم القدير. ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تماماً مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث، مثل المنبع الخفي، الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ (الطارق:6- 7)، والمراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ (الحج:5)، وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ (الزمر:6)، والمنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ﴾ (الأنبياء:30)، وتكوين المطر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾ (الروم: 48)، ودائرية السماء والأرض: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ (الزمر:5)، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ (الأنبياء:44)، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ (يس:38)، وتعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ (الأنعام:38)، ووصف حياة النحل بصفةٍ خاصة: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ (النحل:68- 69)، وثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى. وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:36)»[1].

ثم يضيف الشيخ: «ولكن الأمثلة السابقة هنا لا تتطلب تفسيراً أو تأويلاً، وإنما تتضمن تطابقاً عجيباً بين التوضيح القرآني ذاته وبين التوضيح العلمي، الذي ثبت بعد بحوثٍ طويلة خلال العصور والأجيال، التي انتهت إلى النتائج المقطوع بصحتها، بفضل إسهام رجال متخصصين، كل في فرعه المحدود.

هل في هذا مجرد مصادفة؟ هل يمكن في عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية، ومعتمد على علمه الطبيعي الخاص، وعلى مشاهداته المحدودة (بالإضافة إلى ما اشتمل عليه كتابه من حلولٍ في الأخلاق والدين والاجتماع)، لعلوم التشريح، والأرصاد الجوية، والكونية، والنفسية للحيوان والإنسان، وفروع أخرى كثيرة، تتطلب إمكانيات فنية دقيقة، وتجارب جماعية متكاملة، وأن يعطينا في كل موضوع حقائق عالمية خالدة، من غير أن يترك في أي مجال أثراً ولو طفيفاً ينم عن عصره أو بيئته أو حتى خياله الشخصي؟»[2].

- الخلود والإعجاز بإخباره عن غيوب المستقبل:

(1) محمد عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم، ص 175-176 وحواشيها.
(2) المصدر نفسه، ص 177 من الحاشية 13.

ومن وجوه إعجاز القرآن: إخباره عن غيوبٍ كثيرة، ماضيةٌ وكاينة في المستقبل، فما أخبر به القرآن من أخبار الأمم الماضية، وكله يطابق الحق والواقع، دليل على أنه من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء :82).

ومن ذلك إخباره بما مضى كقصة أهل الكهف، وذي القرنين، وموسى والعبد الصالح، كما في سورة الكهف. وهكذا قصص الأنبياء جميعاً، عليهم الصلاة والسلام.

ومن أين لأحدٍ من أنبياء الله ورسله، أن يحدث الناس عن قصة الخليقة منذ أبينا آدم، عليه السلام، وما تناسل من ذريته، ومواقفهم من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام، مع إحقاق الحق ودحض الباطل... من أين لأحدٍ أن يأتي بذلك ما لم يكن مخبراً عن الله ذي الجلال والإكرام؟

أما الإخبار عن غيوب مستقبلية، فقد تحقق بعضها كما أخبر، وينتظر بعضها تحقيقاً لا ريب فيه.

فمثال ما تحقق فعلاً قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الروم:1- 6).

ومن ذلك إخبار القرآن عما يكون، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ (البقرة:24).

وقد ثبت بتوالي القرون منذ نزول القرآن، عجز الناس عما تحداهم به، وهو عجز متصل مع التحدي المستمر. أما ما ينتظر تحقيقه مما أخبر به القرآن، أو أعلمه الله تعالى نبيه الخاتم عليه الصلاة والسلام، فنسوق منه ما تيسر على سبيل البشرى بمستقبل الإسلام وعزة المسلمين.

- البشرى بظهور الإسلام على ما سواه:

لقد ورد في القرآن الكريم من النصوص ما يبشر بظهور هذا الدين على ما سواه، واستمرارية دور الرسالة حتى يظهر على الدين كله، وبعد ذلك إلى قيام الساعة، وهذا لا يكون إلا بالخلود: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:2)؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:33). قال الطبري: «ليعلى الإسلام على الملل كلها ولو كره المشركون بالله ظهوره عليها»(1). وقال الطبري: «وليظهر دين الإسلام على كل دين، أي بالحجة والبراهين، فقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها»(2).. لا هيمنة دون استظهار لما هي عليه الأديان السابقة وظهوره عليها.

هذا ما نؤمن به يقيناً، ونوقن به جزماً، ولا يزال كتابنا المحفوظ يقرر هذه الحقيقة ويبسطها، وتؤيده سنة نبينا المعصوم ﷺ فتؤكدها. ومن آيات النصر وبشائر المستقبل في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء:105)..

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 82/10.
(2) الجامع لأحكام القرآن، 121/8.

فثبت أن وراثة الأرض مستقبل ينتظر الصالحين من عباد الله، الذين التزموا دينه، وأقاموا شرعته. أما السنن، فقد جاءت تترى، تثبت هذه الحقيقة وتقررها، ومن ذلك:

حديث النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»(1). ومن ذلك أيضاً قوله، عليه الصلاة والسلام: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر**»(2).

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، قال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أم رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تفتح أولاً**»، يعني القسطنطينية(3).. وفي هذا بشارة على أن رومية، وهي المسماة اليوم (روما) ستفتح كذلك، بمفهوم قوله (أولاً)(4).

وكان لا بد من استمرار الجهاد ومضائه إلى يوم القيامة، لضمان حرية العقيدة والأمان وحماية الظهور، ولحفظ كلمة الإسلام عاليةً على ما سواه، وقد وعد الله المؤمنين بالعاقبة الحسنى وبالنصر المبين وأنه قريب من المؤمنين، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الحق.

---

(1) أخرجه مسلم، 171/8، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد.

(2) صحيح ابن حبان، 1631 – 1632 .

(3) رواه أحمد، 2/ 176؛ والدارمي، 126/1، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(4) وانظر لمزيد من دلائل بشائر مستقبل الإسلام، ص 59–62 من كتابنا المستقبل للإسلام، كتاب الأمة (46).

ومن ذلك ما قصه القرآن من قصص بني إسرائيل، مبيناً فيه عقوبة القصاص في التوراة وتصديق الإنجيل لها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:44- 46).

ويقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (الشورى:13- 14).

فأثمرت إيماناً بالله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ (الرعد:17)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ (النساء:58).